

عليه التوراة والانجيل وشرح لها هذين الكتابين شرحاً يعترفون انهم لا يجدون من يوضحها لهم مثله وكان في كل فن من هذه الفنون كأنه لا يعرف سواء لقوته فيه قال صاحب وفيات الاعيان: وبالجملة فان مجموع ما كان يعلمه من الفنون لم يستمع عن احد ممن تقدمه انه قد جمعه قال ابو بشر ثمامة بن الاشرس القميري المعتزلي وكان خصيصاً بالمأمون: رأيت رجلاً يتردد على باب المأمون ورأيت عليه أبهة أديب فجلست اليه ففانثته في اللغة فوجدته جبراً وفانثته عن الخوف شاهدته نسج وحده وعن الفقه فوجدته رجلاً فقيهاً عارفاً باختلاف القوم وبالعلوم ماهراً وبالطب خبيراً وبأيام العرب وأشعارها حاذقاً فقلت له من تكون وما اظنك الا الفراء فقال: انا هو.

وكان القاضي ابو الفرج المعافى النهرواني فقيهاً اديباً شاعراً عالماً بكل فن قال ابن خلكان ذكر احمد بن عمر بن روح ان ابا الفرج المذكور حضر في دار لبعض الرؤساء وكان هناك جماعة من اهل الادب فقالوا: في اي نوع من العلوم ننذاكر فقال: ابو الفرج لذلك الرئيس خزائنك قد جمعت انواع العلوم واصناف الادب فان رأيت ان تبعث غلاماً اليها تأمره ان يفتح بابها ويضرب يده الى اي كتاب منها فيجمله ثم يفتحه وينظر في اي العلوم هو فتتذاكره وتجارى فيه وقال ابن روح: وهذا يدل على ان ابا الفرج كان له انسة بسائر العلوم وكان ابو محمد الباجي يقول اذا حضر القاضي ابو الفرج فقد حضرت العلوم كلها. وقال: لو اوصى رجل بثلاث ماله لاعلم الناس لوجب ان يدفع الى ابي الفرج المعافى وكان ثقة مأموماً شفيحاً روايته. هذا ما حضرنا من امر الاخصاء والاختصاصيين واهل بعض مؤازرنا يكتبون فصلاً واسعاً في حالة الاخصاء عند الغربيين والطرق التي يعتمدون اليها بتفصيل اوسع واشفى

تاريخ ابن الساعي

وقد ناعلى قطعة من كتاب الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السير (١) قال في كشف الظنون انه تأليف الشيخ تاج الدين علي بن انجب بن الساعي البغدادي المتوفى سنة ٦٧٤ (خازن كتب المستنصرية) وهو تاريخ كبير في خمسة وعشرين مجلداً بلغ فيه الى آخر سنة ٦٥٦ والتاريخ مرتب على السنين وهذا الجزء وهو مخروم من اوله وآخره يبدأ من حوادث (١) استخرجه من دشت من الورق احمد بك نيور من علماء القاهرة وشراتها وهو الذي عرف بانه قطعة من الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السير

سنة ٥٩٥ وينتهي في حوادث سنة ٦٠٦ أي ان فيه حوادث عشر سنين تامة ذكر فيه ما وقع فيها من الكوائن السياسية والطبيعية وترجم كثيراً ممن توفوا في تلك الحقبة من الزمن ولا سجا القاضي الفاضل والعماد الكاتب والفخر الرازي وابو السعادات ابن الاثير الجزري صاحب النهاية وهو موجز العبارة سهل الانشاء

ومعلوم ان الدولة العباسية كانت على ذاك العهد آخذة بالضعف ولذلك ثقراً غموجاً من هذا الضعف في مسطور هذا التاريخ ومنها ان ابن ليون صاحب ارمينية اثار على اطراف حلب وغنة ونهب وقتل ومنها ان صاحب الكرج كان 'يغير على بلاد المسلمين ومنها ان ملوك الطوائف كصاحب غزنة وهراة والشام ومصر كانوا يتقربون لبغداد ثقباً ظاهرياً . وفي تلك المدة بدأ الصوفية يرد ذكرهم مع الفقهاء والوعاظ والقراء . واخذت العادة تسري بتقبيل «العتبة الشريفة يباب النوبي الشريف» حتى ان نظام الدين محمد بن عبد الكريم السمعاني لما اتخذ رسولا من علماء الدين محمد خوارزمشاه وتلقى بيوكب الديوان العزيز ونزل يباب النوبي الشريف وأريد على تقبيل العتبة امتنع عن تقبيلها فأهين والزم بتقبيلها مكرهاً ولما جاء رئيس علماء بخارى قبل تلك العتبة أسوة غيره من العامة والخاصة . وفي هذا التاريخ الفاظ واصطلاحات لذلك العصر منها ماورد في ترجمة ابي منصور بن نقطة المشيخ وانه كان مجيداً في صنعة الغناء وعمل الكان ومنها ما ذكره في ترجمة الامير قيصر العوفي «نسبة الى الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة كان مملوكاً افرنجى الجنس الا انه كان موصوفاً بالحسن والملاحة واللفظ فقدمه الوزير على جميع مماليكه وكان يخرج في الاعياد في صدور موكبه بالقباء والعامة القصب الكحلية والى جانبه خادم له من خدم الوزير بالاهبة أيضاً» وقد ذكر فيه ما وقع سنة ٥٩٧ في مصر من الغلاء العظيم الذي اهلك معظم أهلها وهو جملة من كتاب الاعتبار في أخبار الديار المصرية بقلموقى الدين عبد الطيف البغدادى . وهذا الكتاب طبع قديماً في مصر وترجم كثيراً من المسيحيين والاسرائيليين وغيرهم من غير اهل الاسلام ووفاهم حقهم واليك مثالا من ذلك بالحرف: «ابوسعيد الحسن ابن خالد بن المبارك بن محضر النصراني الماردني الملقب بالوحيد كان مؤثراً للوحدة والانقطاع واظلم على الاشغال بالعلم في اول شبابه واتقن علم الاوائل وبرز فيه ثم رفض الاشغال وكان بينه وبين قطب الدين بن ايلغازي بن أرتق ملك ديار بكر صحبة في سن التربية فكان يعاتبه على الانقطاع عنه ويندبه الى خدمته الى ان اجاب فتقدم عنده وصارت له المنزلة الرفيعة والاحترام والتقدم وتدبه بارق شاء بن قليم لوزارته فابى ثم قصد بغداد واقام بها مدة عند الجاثليق ابي حكيم ماري بن ايليا بن الحديثي ثم عاد الى بلده وكان قدر رزق طبعاً في نظم الشعر من ذلك قوله:

ومعتدل ساجي الجفون كأنما
إذا رام عند الوصل ترك دلاله
وما عذل العذل إلا جهالة
وما تركت من الصباية في الهوى
أشفعه فيها يريد بحسنه
ولمستني أروى ميسم نوره
وقوله لقد أثرت صدناه في لون خده
نرى عسكر الروم في الزرع قد بدت
أم الصبح بالليل السهم موضح
لقد غار صدناه على ورد خده
وقوله في جواب كتاب

وقفت على غوى كتابك معذراً
وما حطه إلا ككتاب روضة
وراق بسعي منه لفظ كأنما
وإن تلك أفعال الجليل قد عدت
فلا توالي فوق الوداد تضلاً
ولم يك بداً ما قصفت من العلى
وقوله في مثله

إناني مستتاب الشائنة أنامل
فواجباً في الثوث فوق طرسة
حوت البحر من قبضها بغرف البحر
وما عودت بالقبض الله العشر

كان مولد أبي سعيد هذا في سنة سبع وأربعين وخمسمائة وتوفي في سنة ستائة
وللؤلؤ عناية باخذ التقاليد الصادرة عن الملوك وغيرها من الضكوك الرسمية ولو كتب
لكتابه كله البقاء لا تنفع به كثيراً في هذا الباب لأن فيه ولا شك ما يقبله أكثر المؤرخين
ومما ذكره تقليد نثر الدين أبي الحسن محمد بن محمد أختار الكوفي نقابة الطالبين بعداد قال
المؤرخ : وقد وقعت عليه وهو يخط الكتيب أبي الحسن محمد بن محمد بن عبد الكرم القمي
كاتب ديوان الانشاء المعمور حينئذ ومن أشائه ومن خطه نقلت . وهنا أورد العهد وهو
في أربع ورقات ولولا أن في بعض الكتب المطبوعة ما ياتيه من التقاليد وربما فاقه
ياسلو به وبلاغته لاقتبسناه

ومن فصول الكتاب المهمة ما ذكره في نقل الفتوة وما تجدد فيها سنة اربع وستائة .
والفتوة كما في التاج لغة الكرم والسخاء وفي عرف اهل التحقيق ان يؤثر الخلق على نفسه
بالدنيا والآخرة وصاحب الفتوة يقال له الفتى ومنه لا فتى الا على وقول الشاعر

فان فتى الفتيان من راح واعتدى لفسر عدو او لنفع صديق

وعبر عنها في الشريعة بحكاهم الاخلاق ولم يجز لفظ الفتوة في الكتاب والمنة وانما
جاء في كلام السلف واقدم من تكلم فيها جعفر الصادق ثم الفضيل ثم الامام احمد وسهل
والجديد ولم في التعبير عنها الفاظ مختلفة والمآل واحد . قلنا والفتوة فيما نرى كما يظهر من
هذا التقليد الصادر عن الناصر اشبه بمجوعة سياسية . والعهد الصادر عن الخليفة الناصر
لدين الله الذي نحن بصددده هو في هذه السنة اهدرت الفتوة القديمة وجعل امير المؤمنين
الناصر لدين الله رضي الله عنه القبلة في ذلك والمرجوع اليه فيه وكان هو قد شرف
عبد الجبار بالفتوة اليه وكان شيخا متزهدا فدخل في ذلك الناس كافة من الخاص والعام
وسأل ملوك الاطراف الفتوة فنفذ اليهم الرسل وقد البسهم سراويلات الفتوة بطريق الوكالة
الشريفة وانتشر ذلك ببغداد ونفى الاصاغر الى الاكابر وافق ان الفاخر العلوي كان
رفيقا للوزير ناصر بن مهدي وكان له رفقاء فاختصم احد رفقاته مع زريق لوز الدين نجاح
الشراي وصار بذلك فتنة عظيمة بحلة قطفتا حتى تجالدا بالسيوف فانتهى ذلك الى الامام
الناصر لدين الله رضي الله عنه فانكره وتقدم الى الوزير يجمع رؤوس الاحزاب وان
يكتب في ذلك منشور يؤثرون فيه بالمعروف والالفة وينهون عن التضامن ويقرباً بمحض
منهم ويشهد عليهم بما يتضرعونه فمن خافه أخذ سراويله وأبطلت فتوته وعوقب بما يرى من
العقوبة واحضر الفاخر العلوي وقال الوزير للعاشرين اشهدوا علي اني قد نزلت عنه وقرأ
المنشور عليهم المنكين ابو الحسن محمد بن محمد القمي كاتب ديوان الانشاء المعمور وهو من
انشائه وهذه نسخة :

بسم الله الرحمن الرحيم . من المعلوم الذي لا يتارى سيفه صحته ولا يرتاب في وضوح
براهينه وادلته ان امير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه هو اصل الفتوة ومنبعها
ومهم اوصافها الشريفة ومطلعا وعنه تروى محاسنها وآدابها ومنه تشتت قبائلها واحزابها
واليه دون غيره ينسب الفتيان وعلى منوال مؤآخاته الشريفة البوابة يسج الرفقاء والاخوان
وانه كان عليه السلام مع كمال فتوته وفور رجاحته يقيم حدود الشرع على اختلاف مراتبها
ويستوفيها من اصناف الجناة على تباين جنائياتها ومطالها ومذاهبها غير مقصر عما امر به الشرع
المطهر وقدره ولا مراقب فيما ربه من الحدود وفرره امتثالاً لامر الله تعالى في اقامة حدوده .

وحفظ المناظم الشرع وتقوم عموده فانه عليه السلام فعل ذلك به رأي من السلف الصالح وسمع ومشهد من اختيار الصحابة وجمع فلم يسمع ان احداً من الامة لاه ولا طعن عليه طاعن في حداقته وحقيق بين اورثه الله مقامه وناط به شرائع الدين واحكامه وانتهى اليه عليه السلام في فتوته واقتنى شريف شيمته وكرم سميته ان يقتدي به عليه السلام في افعاله ويحتذي فيها استراعه الله تعالى واضع مثاله غير ملوم فيما يأتيه من ذلك ولا معارض فتوة ولا شرعاً فيما يورده ويصدره وقد رسم الله على المرامم العلية المقدسة النبوية الامامية وزادها تقوذاً معصوداً بالصواب وتأييداً تمتد الاطناب محكم الاسباب على كل من تشرف بالفتوة برفافة الخدمة الشريفة المقدسة المعظمة المحمودة المكرمة الطاهرة الزكية الامامية الناصرة لدين الله تعالى شرف الله مقامها وخلد ايامها واعلى كلمتها ونصر رايها ان من قتل له رفيق نقداً نهي الله تعالى عن قتلها وحرمة وسفك دمها حقته الشرع المظهر وعصمه وصار بذلك ممن قال الله تعالى في حقه حيث ارتكب هذا المحرم واحتقبت عظيم هذا المأثم ومن يقتل مؤمناً مملوماً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ثلاثة ان ينزل عنه في الحال في جمع الفتيان عند تحققة لذلك ومعرفته وبادر الى تغيير رفقته مخرباً له بذلك عن دائرة الفتوة التي كان متسماً بها مسقطاً له من عداد الرفاقه التي لم تنعم نواحيها ذلك خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم وان كل فتى يحوي فائلاً ويخفيه ويساعده على امره ويؤويه ننزل كبيره عنه ويغير رفاقته ويهترأ منه وان من حوى ذا عيب فقد عاب وغوى ومن آوى طريق الشرع فقد ضل وهوى والنبي عليه السلام يقول من آوى محدثاً فعليه لعنة الله وملائكته والناس اجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً ولا حدث اكبر من قتل النفس عدواناً وظلماً ولا ذنب اعظم منه وزراً وانما فان الفتى متى قتل فتى من حزبه سقطت فتوته ووجب ان يؤخذ منه القصاص عملاً بقوله وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسنة بالسنة والجروح قصاص وان قتل غير فتى عوناً من الاعوان او معلقاً بديوان في بلد سيدنا ومولانا المتترض الطاعة على كافة الانام الناصر لدين الله امير المؤمنين وخليفة رب العالمين فقد عيب هذا القتال في حرم صاحب الحرب بالقتل فكأنما عيب على كبيرة فسقطت فتوته بهذا السبب الواضح واجب القصاص منه عند كل فتى راجح وليعلم الرقعة الثمينة ذلك وليعملوا بتوجيهه ويحجروا الامر في امثال ذلك على مقتضى المأمورية وليتقوا عند المحدود سيئه هذا المرسوم المطاع وبقايهه بالانقياد والانباغ ان شاء الله تعالى وكتب في صفر من سنة اربع وستائة وسلم الى كل واحد من رؤوس الاحزاب منشور بهذا المثل فيه شهادة لثلاثين من العدول ثم كتب تحت كل مرسوم ومنشور ما هذا صورته: قابل العبد بها تقسمه هذا المرسوم المطاع وقابله بما

يجب عليه من الانقياد والاتباع والامثال وهو الذي يجب العمل به فتوة وشرقا وهذا المعروف من سيرة القتيان المحققين نقلا وسمعا وقد الزمت نفسي اجراء الامر على ما تضمنه هذا المرسوم الاشرف فمضى جرى ما ياتي في المأمور به المحدود فيه كانت الدرك لازما لي والمواخذة مستحقة على ما يراه صاحب الحرب ثبت الله دولته واعلى كفته وكتب فلان بن فلان في تاريخه « يا هـ

ومن اليهود ما صدر عن الخليفة العباسي لرئيس اليهود قال ابن الساعي : « وفي تاسع ذي القعدة المذكور ولي ابن وبعه قرأ أس مشية (٩) اليهود وكتب عهده بذلك وسلم اليه فقراء على اليهود في الكنيسة وهذه نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الواجب شكره الغالب امره العلي شأنه القوي سلطانه السابعة نعمته البالغة حكيمته المنفرد بالجلال والافتدار المصروف على مشيئته مجاري الافضية والافدار الدال على وحدانيته يبدع فطرته المانع امجاب صنعته من ان تعتذر في الاوهام كنه معرفته الهادي الى سبيل الرشاد من شاء من خلقه الهامي سبحانه فضله على كل مقر بربوبيته عارف بحقه الذي اعطى محمدا صلى الله عليه وعلى آله من اكرم ارومة واعلى محند وجرأومة واشرف العرب منصبها واكمها واكمها واعزها قبيلا واوزعها في الكارم سبيلا وارسله الى الاجر والاسود نبيكا واختاره من اصناف الامم عربيا وايده بالحكم اميا وجعله منصورا باملائكته محميا وابتمته بالبرهان الساطع والدليل القاطع ونسخ بشرعته المظهرة الملل السالفة والشرائع فلم يزل صلى الله عليه وسلم وعلى آله بامر الله صادعا ولانف الباطل جادعا ولما انزل الله مبلغا وجهده في نصح الامة مستغرعا فضلى الله عليه وعلى آله وعلى سلالة عمه ووارثه وصنوايه العباس الذي طهره من الادناس وفرض مودتهم وطاعتهم على جميع الناس الخلفاء الراشدين وائمة الحق المجتهدين صلاة لا انقشاع لغمامها ولا انقطاع لتواصل دوامها الحمد لله الذي اسار الى خليفته في ارضه ونائبه في خلقه الامام المقترض الطاعة على سائر الامم الناصر لدين الله امير المؤمنين ووارث الانبياء والمرسلين حجة الله على الخلق اجمعين من موارث انبيائه وما آثر خلفائه في ارضه وامثاله ما هو احق بمجازاة مجده وارثاء تلاته واخذ ميثاق طاعته على الامم في الازل والزم الاواخر منهم ما الزم الاول وفرض على خلقه الانقياد به والانتظام وحاز له وراثته الخليفة عن الامام عن الامام زاده الله شرقا الى شرقه وادلم على العالمين ما منحهم به من شمول عدله وحصانة كنفه فالمسلم والذمي والمعاهد في ظل اياديه الشريفة وادعون وفي رياض الائمة راتعون وبما يكلاهم من عين واقفه البقلى حاجعون لا يكدر لهم شرب ولا يذعر لهم شرب وحكم عدله بوجوب النظر العام في مناظم امرهم وجوانع مصالحهم ورعاية جمهورهم لما وكله الله تعالى اليه من سياسة

عباده وناضه بشريف آرائه واجتهاده . ولما اضرع دانيال بن العازر بن هبة الله في ترتيبه رأس مثنية عوضاً عن العازر بن هلال بن فهد الدارج على قاعدته وجاري عادته وانتهى ما يتجلى به عند اهل تحلته ويتصف به واستحقاقه لما اضرع فيه بحسن طريقته فيهم وسلامة مذهبه ورسم اعلی الله تعالى المراسم الشريفة المقدسة المعظمة الممجدة المكرمة النبوية الامامية الطاهرة الزكية الناصرة لدين الله زادها الله اجلالاً ممتد الرواق ونفاذاً سيف الاقطار والآفاق ترتيبه رأس مثنية على عادة الدارج المشار اليه حيث كان ابن الدستور رأس مثنية ايضاً وان يكن له النظر في الولاية عليه من جميع الاماكن التي جرت عادته بتوليها والتصرف فيها وان يتميز عن نظرائه واشكاله باللبسة التي عهدت لامثاله وسبيل طوائف اليهود وحكامهم بمدينة السلام واكتاف العراق الانتهاء في ذلك الى المأمور به والرجوع الى قوله في توسط امورهم والمعمل بموجبه وان يخرجوا اليه من الرسوم التي جرت عادة من تقدمه بها بالاماكن التي كان يتصرف فيها من غير معارضة له في ذلك مع قيامه فيها بأتيه ويديره بشرايط الذمة والتزامه ومحافظته بالامثال وبواجب الاعتصام والاجلال ان شاء الله تعالى وبه الثقة وكتب في ناسع ذي القعدة من سنة خمس وستائة والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله الذي ختم النبيين وهو سيد المرسلين المصطفى على سائر الخلق اجمعين » .

والخليفة الناصر لدين الله هذا هو الذي تقدم كما قال ابن الساعي « بانشاء دور ضيافة لفظور الفقراء في شهر رمضان في سائر محال بغداد شرفياً وغريباً فوق الشروع في ذلك على يد قوام الدين نصر بن ناصر صدر الخزن المعمور وسلم الى كل ثقة من اهل محلة مقدار من العيين وامر باثبات فقراء اهل كل محلة وان يجري لكل واحد في كل يوم رطلين من الخبز الفائق وقدح طبيع فيه نصف رطل لحم شأن فاثبت في كل دار مقدار خمسمائة نفس زائداً وناقصاً مع الفقراء والضعفاء هذه الصدقة وانفقوا بها ونفقر بالم في هذا الشهر واستراحوا من السعي في تحصيل القوت والاهتمام به فالتة تعاد، يجعل ذلك نوراً يسعى بين يديه هذا سوى ما يفرق على الفقهاء في جميع المدارس والصوفية في سائر الرطب والمنقطعين في الجوامع والمساجد والزوايا من الغنم والدقيق والدهب اجزل الله بذلك ثوابه وخفف به حسابه » .

